Journal of Social Sciences (COES&RJ-JSS)
ISSN (E): 2305-9249 ISSN (P): 2305-9494
Publisher: Centre of Excellence for Scientific & Research Journalism, COES&RJ LLC
Online Publication Date: 1st October 2019
Online Issue: Volume 8, Number 4, October 2019
https://doi.org/10.25255/jss.2019.8.4.683.691



The cultural criticism, the Maqama (Al-Mazyriah) of Badi Az-Zaman Al-Hamadani

Abdulrahman Alsharqawi
University of Jordan, Jordan

Abstract:
The cultural criticism in Maqamat of Badi Az-Zamab Al-Hamadani exposes the Abbasid society with all its thoughts, conflicts, contradictions and resistance to the political movements and the hegemonic power that dominate the state and all of its different manifestations that can be seen in the form of the political, economical, social, and literary that make the researcher willing to work hard to investigate such embedded gestures in the literary texts of the society that this study is intended to tackle.

Keywords :
Cultural Criticism, Maqama (Al-Mazyriah) of Badi Az-Zaman Al-Hamadani

Citation:
Alsharqawi, Abdulrahman (2019); The cultural criticism, the Maqama (Al-Mazyriah) of Badi Az-Zaman Al-Hamadani; Journal of Social Sciences (COES&RJ-JSS), Vol.8, No.4, pp:683-691; https://doi.org/10.25255/jss.2019.8.4.683.691.

النقد الثقافي في (المقامة المضيريّة) عند بديع الزمان الهمذاني

عبدالرحمن الشرقاوي

- ملخص:

يكشف النقد الثقافي في مقامات بديع الزمان الهمذاني عن المجتمع العباسي بكل ما فيه من صراعات، ومتناقضات، وأفكار، ومقاومات لبعض التوجهات أو السلطات المسيطرة على مفاصل الدولة في سياقاتها المختلفة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأدبية.

مما يجعل الباحث يجدّ في الكشف عن تلك الأنساق المضمرة في النصوص الأدبية للمجتمع المراد الكشف عنه ودراسته.

- المقدمة:

اهتم الدارسون بفن المقامات في النثر العباسي، وبمقامات بديع الزمان خصيصا، كونه المبدع المؤسس لهذا الفن النثري المرسل، فتناولوا المقامات تحليلاً وتفسيراً، واختلفت الرؤى والتأويلات باختلاف المنهج المتبع في تحليلها، ونجدهم اختلفوا قبل ذلك في أصلها، وأول من ابتدعها، والغاية من تأليفها، وفي البديع ونسبه، إلى غير ذلك من التقليد أو الاجتهاد في التناول. "وخلاصة القول فإنَّ من دوافع صنع المقامات من قبَلِ البديع الهمذاني، هو ذلك التناقض الشديد في المجتمع الإسلامي"[1].

ولمَّا وقع اختياري على "المقامة المضيريَّة" عزمت على التحرر من سلطة الدراسات السابقة ابتداءً، وآثرت مواجهة النص بقراءات متعددة: أولى وثانية وثالثة، مع تدوين ملامح النقد الثقافي التي تواجهني في تلك المقامة، ثم أرجع إلى ما كتبه الدارسون تشذيباً ومراجعة وتنقيحاً، حتى أصل إلى صورة شبه نهائية للنقد الثقافي في المقامة المضيريَّة.

وإن الباحث ليجد الكثير من الدراسات التي دارت حول مقامات بديع الزمان الهمذاني بشكل عام، ككتاب مازن المبارك (المجتمع العباسي من خلال مقامات بديع الزمان الهمذاني)، وبحث محمد محمود نوفل في مجلة البيان الكويتية (مقامات بديع الزمان الهمذاني وأثر البيئة فيها) وغيرها، وهذه الدراسات تحوم حول المقامات عموماً وتأتي على"المضيريَّة"ولا تقع فيها إلا لماماً لا يشفي الغليل، ووجدت بحثاً منشوراً في مجلة مشارف الفلسطينية، العدد24 في1 إبريل 2004م بعنوان(المقامة المضيرية: توظيف الأدبي في الاجتماعي والسياسي) لمحمد خليل، تناولها تناولاً جيداً عرضت نتائجي التي توصلت إليها على نتائجه فأفدت منه وعارضت -كحال الجهود البشرية-، ورأيت أن يكون الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في المقامة المضيرية فقرة فقرة حتى أصل إلى ختامها.

- نبذة عن بديع الزمان الهمذاني [2]:

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن الهمذاني، الملقب ببديع الزمان، وُلد في همذان، وهي مدينة جبلية في إيران سنة 358هـ، من أسرة عربية كريمة، كما صرح بذلك في إحدى رسائله: "إني عبد الشيخ، واسمي أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد، ومُضر المحتد".

ومن أبرز شيوخه: أحمد بن فارس، صاحب المُجملْ، مازال يختلف إليه حتى أخذ عنه علومه وأتمَّها. قصد حضرة الصاحب بن عباد في الري، فأعجب به وقرَّبه. ثم انتقل إلى جرجان ثم خراسان فنيسابور، وفي الأخيرة كانت مناظرته الشهيرة مع أبي بكر الخوارزمي، حيث انتصر عليه وطارت شهرته بعدها، وألف مقاماته حينئذ وهو في ميعة الشباب لم يتجاوز الثانية والعشرين. تزوج في هراة من ابنة رجل يدعى الخشنامي، مات سنة 398هـ وهو لا يزال في الأربعين من عمره.

---

[1] نوفل، محمد محمود قاسم، (مقامات بديع الزمان الهمذاني وأثر البيئة فيها)،صـ47، العدد: 234، مجلة البيان-الكويت،1 سبتمبر 1985م.

[2] انظر: الثعالبي، أبو منصور (ت:429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج4، صـ293، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية-بيروت، 1983م. والحموي، ياقوت (ت:626هـ)، معجم الأدباء، ج1، صـ234، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي-بيروت، 1993م، وغيرهما.

- التمهيد:

للمقامات في التراث الأدبي أثر بالغ، واهتمام من الخاصة والعامة مذ أنشأها بديع الزمان الهمذاني في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فأصبحت عنده محددة المعالم بينة التقاسيم، من راو محدِّث (عيسى بن هشام)، وبطل حاذق في طرائق الكدية والمسألة (أبو الفتح الإسكندري)، ولكل مقامة منها حبكة قصصية مختلفة عن الأخرى، وبأسلوب سردي مسجوع تميز به البديع، وغالباً ما تحتوي المقامة على أبيات شعرية من صنع المؤلف.

ولكن لا بد من التنبيه إلى أنَّ كثيراً من تلك المشاهد الحاصلة في المجتمع العباسي ليست وهمية أو من وحي الخيال، بل لا أشك أنها حقيقة معاشة في ذلك المجتمع الخليط بالعناصر المتضادة والمتباينة، فالشخصيات الوهمية التي ابتكر أسماءها بديع الزمان وألبسها لبوس الخيال إنما استقاها من واقعه، ورآها بحواسه، ولم يرد لها العيش في كنف الرمزية إلا من أجل حرية النقد لحياة المجتمع العباسي في جوانبها المختلفة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها.

ولعل الباحث المتمعن في المقامات لا يسعه إلا التسليم بوجود أشباه ونظائر لهذه القصص في تلك الحقبة، ودليل ذلك أني قد وجدت في المقامة المضيرية خصيصا والمقامات عموماً أساليب في التعبير هي إياها في واقعنا المعاش بعد ما يزيد عن الألف عام، مما يدل على أن أنماط التفكير الإنسانية متقاربة خاصة في ظل الظروف المشابهة من دين ولغة وعرق، وكذا وجود شخصيات ذات سمات وطبائع معينة لا تختلف عن ما نشاهده في حياتنا اليومية، فهذه القرائن تدل على واقعيتها بالقياس، وبإسقاط الحاضر على الماضي في المقامات.

وإنَّ الحديث عن النقد الثقافي في المقامة المضيرية ليستحق الوقوف الطويل كونها "ذروة الهمذاني الفنية"[3]، وكون المقامة المضيرية أطول المقامات عند بديع الزمان إذ تقع في نحو أربع عشرة صفحة في الطبعة الكاملة عند الانتشار العربي، ولم يأت هذا الطول اعتباطاً إنما كان مقصوداً لغاية في نفس بديع الزمان تأتي لاحقاً إن شاء الله.

- ملخص المقامة المضيريَّة:

أجرى بديع الزمان أحداث هذه المقامة بين بطله المعتاد أبي الفتح الإسكندري رجل الفصاحة والبلاغة "شخصية رئيسة"، وبين أحد تجار البصرة "شخصية ثانوية"، وكانت دعوة تاجر البصرة لأبي الفتح الإسكندري توطئة للحبكة المقصودة، فنراه يستدعي من خلال المضيرة الأولى التي قدمها تاجر البصرة المضيرة الثانية التي قدمها تاجر بغداد "شخصية رئيسة"، مستخدماً تقنية (الاسترجاع)، وتبدأ الأحداث عند تقديم تاجر البصرة لضيفه أبي الفتح وأصحابه -عيسى بن هشام وغيره- مضيرة شهية تأخذ بالقلوب، فيقوم أبو الفتح يلعنها وصاحبها مستذكراً مضيرة تاجر بغداد الذي ألح عليه أن يضيفه في داره، فيوافق أبو الفتح على ثقل، ويزيد الثقلَ ثقلاً طبائعُ التاجر، وعلى رأسها الثرثرة والاستئثار بالحديث، فيبدأ بذكر صفات زوجته، ثم يأتي على كل حاجياته -من محلة ودار وباب وحلقة وحصير وطست وإبريق وغلام- فيصفها ويصف حسن صنعها، وإتقان من عملها، ولا يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها، مؤكداً على ندرتها وغلاء ثمنها وأنها لا تكون إلا عند التجار، ولا تصلح إلا لأكابر الأضياف أمثاله، وما تلك الدعوة إلا من أجل مصلحة أرادها التاجر من أبي الفتح الإسكندري، يلمح إليها في ثنايا حديثه وهي مدحه والثناء عليه ليذيع صيته بين الخاصة والعامة، وتروج تجارته.

فيضيق أبو الفتح بالتاجر ذرعاً، وتجيش نفسه، فيحاول الهرب منه ومن مضيرته، فيتبعه التاجر وبعض الصبيان، فيرمي أحدهم بحجر ليصيب رأس أحد السابلة، ويُقتاد على إثر ذلك إلى السجن سنتين.

- النقد الثقافي في المقامة المضيرية:

حاولت في هذا البحث أن أتبيَّن الأنساق الثقافية المضمرة في المجتمع العباسي الذي عاش فيه بديع الزمان الهمذاني من خلال المقامة المضيرية، وأن أكشف الدوائر الأساسية التي خاض فيها البديع وأراد أن يسلط عليها الضوء: السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية وغيرها.

1- الفقرة الأولى صـ127: (حدثنا عيسى... الظرف)

يبتدئ بديع الزمان مقامته على غير عادته حين جمع بين الراوية (عيسى بن هشام) والبطل(أبي الفتح الإسكندري) في هيئة حسنة وصفة مرموقة واحتفاء من بعض رجال الدولة الأثرياء بهما، مما يُعطي طابع

---

[3] نقلاً عن: خليل، محمد،(المقامة المضيرية: توظيف الأدبي في الاجتماعي والسياسي)، GabriellFrancesscoمقولة: صـ223، العدد24، مجلة مشارف الفلسطينية، 1 إبريل 2004م.

الجد على هذه المقامة، ويلفت الانتباه لما سيأتي ذكره من أمر مهم فيها، وكأنَّ البديع سيتوحد مع الراوية والبطل ليظهر بصورة رزينة واضحة، وخطاب بليغ فصيح، لا كما يكون الحال على لسان البطل المكدي المتلون بثيابه المغيَّرة، وخلقته المنكَّرة.

"كنت بالبصرة": يذكر مكان الحدث(البصرة)، ويشير الشارح -محمد عبده- إلى قرب البصرة من خليج العجم كما أطلق عليه، إذ قد نؤسس على هذه المعلومة وعلى جذب بغداد للأعاجم-كونها عاصمة للخلافة- مسألة مهمة في دخول الأعاجم وسيطرتهم على مفاصل الدولة في العهد البويهي، وإفسادهم في الجوانب السياسية والاقتصادية فيها.ونجده لا يُسمّي المقامة باسم المكان كما هو الحال في كثير من المقامات[4]، بل سماها بالدائرة المركزية التي تدور عليها القصة (المضيرة)، فالدعوتان على مضيرة، أولاهما تُفضي إلى الثانية كما هو معروف في علم النفس بنظرية (الارتباط الشرطي)[5]، وفي هذا دلالة على أنَّ المضيرة طبخة للطبقة المخملية الثرية في المجتمع، وتصلح لأن يُواجه بها الأضياف من أصحاب القدر العالي، وبناء عليه فقوله: "ومعي أبو الفتح... رجل الفصاحة،...والبلاغة" يعرفنا مكانة أهل الأدب والفصاحة والبيان في المجتمعين البصري والبغدادي، وأنَّهم في الذروة العليا عند السلطة وأصحاب الوجاهة كالتجار، فأبو الفتح صاحب الفصاحة والبلاغة يدعوه تاجر في البصرة، وتاجر في بغداد مما يؤكد سلطة الأدباء في المشهد العام في المجتمع العباسي، ومحاولة الطبقة العليا في الدولة الظفر بهم في مجالسهم.وهنا أتساءل: ما علاقة التجار بالأدباء في المقامة؟ أو التجارة بالأدب والبيان؟

"فقدمت إلينا مضيرة...، ويموج فيها الظرف" يشرع في وصف المضيرة ويُسبغ عليها ثوب الحضارة البهي، بزينته ونضارته، وثوب السلامة والصحة لآكليها، ثم يصفها بالصفة الملوكية إذ اشتهر بصنع مثيلاتها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كما يزعمون[6]، وأنها من حسنها يشهد آكلها لمعاوية بن أبي سفيان بالخلافة، ولا أرى بقول الشارح محمد عبده وغيره ممن ذهب إلى أبعد من ذلك تماشياً مع الشبهات دون تمحيص أو تدقيق.

ومما نتبيَّنه في النسق الاجتماعي في الولائم أنَّهم كانوا يُسرفون من أجل المباهاة كما هو حاصل اليوم وذلك في قوله: "قصعة يزل عنها الطرف".

2- الفقرة الثانية صـ128: (فلما أخذت من... وإضاعة الوقت)

"قام أبو الفتح يلعنها... وظنناه يمزح"من أساليب المزح في ذلك العصر بل وإلى يومنا هذا ردَّة الفعل غير المتوقعة، وذلك بإظهار الجِدِّ تجاه أمر مألوف بل مُحبب تطير له القلوب، ونؤكد هنا على أنَّ الإنسان هو الإنسان بكل مشاعره وعقله مهما بَعد الزمان، وتغير العمران.

وكذا مما يوافق حاضرنا حاضرهم كما هو منقول في المقامة قوله: "يلعنها وصاحبها... وطابخها" تتعدى الشتيمة الشخص المعني لتصل إلى من لا ناقة له فيها ولا جمل، وهنا لفتة خفية ضمنية ربما يكون البديع قد رمى إليها من خلال توجيه رسالة شتم لكل من يحضر ويأكل ويشارك تلك الطبقة الظالمة الانتهازية من التجار الفاسدين.

ومن أساليب الإعذار قبل الإملال، وتهيئة النفوس للقصة الطويلة، وتخفيف الطول على المتلقي المعاصر له في القصة والمتلقي الحالي قوله: "قصتي معها أطول من مصيبتي فيها، ولو حدثتكم لم آمن المقت وإضاعة الوقت"، فهو مع اعتذاره يستثير فضول الناس لمعرفة المصيبة التي جاءت من وراء مضيرة؟**!**

3- الفقرة الثالثة صـ129: (قلنا: هات... فيه العيون)

---

[4] وهناك لفتة أخرى في عدم التسمية بـ(البصرية) أو (البغدادية)، لأن لديه مقامتين في هذين البلدين، مما يرجح عندي أنَّه كتب المقامة(المضيريَّة) بأخرة، أي بعد هاتين، مما لا يتيح له التسمية بهما من جديد، وعلى هذا يتأكد القول بجودة المقامة المضيرية وأنها تشكل الذروة الفنية عند البديع.

[5] انظر: خليل، محمد، (المقامة المضيرية: توظيف الأدبي في الاجتماعي والسياسي)، صـ223، العدد24، مجلة مشارف الفلسطينية، 1 إبريل 2004م.

[6] حاولت أن أتتبع أول من ذكر اشتهار المضيرة عند معاوية، فوجدت الثعالبي(ت:429هـ)في "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" دار المعارف- صـ112 قال على لسان أبي هريرة رضي الله عنه: (مضيرة معاوية أدسم وأطيب...)، وهذا مردود باطل من جهة السند والمتن، وما أريد به إلا الطعن في الصحابة، لا أعني الهمذاني والثعالبي وإنما انتشارها بين الناس من قبل الطاعنين بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.(وهناك مطاعن كثيرة وشبهات بثها المغرضون عن أبي هريرة تحديداً والصحابة عموماً).

من هنا تبدأ القضية المؤرقة لبديع الزمان التي أراد أن ينقدها، وهي فساد تلك الطبقة المتنفذة من التجارالأعاجم، وضربهم للمجتمع العباسي فيما يمارسونه من فساد أخلاقي وقيمي، مع رقة الدين وضعف الوازع الذاتي.وسأقف عند كل إشارة تدل على قصدية الأعاجم تحديداً.

"دعاني بعض التجار"لمَ لمْ يُسمّ التاجر؟ مع كونه قد صرح بأسماء أصحاب المهن كأبي إسحق بن محمد البصري النجار، وعمران الطرائفي؟ ولو كانت لغرض التعليم أو التسلية فقط -كما يزعم بعضهم- لسمَّى اسماً رمزياً على الأقل! ولكنَّه لم يصرح باسم يدل على تلك الفئة خشية محاربة الفاسدين ومَن وراءهم له.

"ولزمني ملازمة الغريم... الرقيم" الإلحاح في العزيمة عادة قديمة تدل على كرم المعدن، وطيب الأصل، إلا أنَّ التاجر -كما سيأتي- ما أراد إلا مصلحته، وما قصد سوى الربح من وراء العزيمة. ويدل أيضاً على ثقل طينة أولئك التجار، وصبرهم على الإلحاح وإراقة ماء الوجه في سبيل غاياتهم التجارية التي يبنونها على أكتاف الآخرين.

"يُثني على زوجته" وقفت هنا أتساءل: مذ متى والعربي-المشهور بالغيرة- يذكر صفات زوجته ويثني عليها أمام الناس؟ ثم ما باله والغريب الذي ليست بينه وبينه سوى لحظات! من هنا بدأت الشرارة الأولى لفكرة قصدية كشف بديع الزمان لتلك الفئة من التجار الأعاجم، ولكنها فرضية تحتاج إلى دليل قوي يعضدها، إذ قد يعترض معترض فيقول: إن ضعف الغيرة الناتج عن قلة الوازع الديني في تلك الطبقة -أعني طبقة التجار عموماً- كثير حتى في زماننا، فلم حجَّرت واسعاً؟

وهذا اعتراض صحيح، ولكن العبرة في مجموع الإشارات التي قد تخصص النص العام، وستأتي في حينها.

"ويفدّيها بمهجته" نلحظ الامتداد الطويل لأسلوب الثناء المستعمل في العراق حتى اليوم (أروح لك فدوة) أو أشباه هذه العبارة التي ظلت ثابتة في الذاكرة الثقافية للمجتمع البغدادي وما حوله، وفيها بيان لتوافق بعض الحاجات العاطفية والنفسية من خلال ارتضاء المجتمعين-العباسي في القرن الرابع الهجري والحديث- لنفس العبارات والأساليب وتلبية اللغة لهذه الحاجات على مر العصور.

"من التنور إلى القدور.." تعجبت من طبخ المرأة المنعمة في ذلك العصر للولائم الكبيرة! مع أنَّ التاجر سيذكر امتلاكه لعبد رومي، وربما لديه أكثر من مملوك لثرائه الفاحش وغناه، فقد يدل هذا على جانب اجتماعي مهم وهو اهتمام الزوجة في شؤون المنزل والضيافة حتى وإن كانت تملك الإماء والعبيد.

ومن الأنساق المضمرة التي نلمسها من رسم بديع الزمان لعقلية ذلك التاجر، ووصف دوائر التفكير التي يدندن حولها، نجده يبيّن سطحية تلك العقلية وتفاهة اهتماماتها، إذ تدور أحاديث التاجر عن العروض والتجارة، وزيوف المظاهر البراقة[7]، ولا نجده يتحدث في جوهر الحياة: في الأخلاق أوالفكر الإنساني أو الأدب أو غير ذلك من العلوم الواجبة على الإنسان في هذه الأرض.

4- الفقرة الرابعة صـ130: (وأنا أعشقها...سبحان من يعلم الأشياء)

"وهي ابنة عمّي لحًّا" وهذه فلسفة شائعة عند التجار حتى يومنا هذا، لأنهم يخافون على أموالهم من طمع الغرباء البسطاء، وكذا أنفتهم من النزول والزواج من بنات العامة، وهذا ظاهر من انغلاقهم في "محلَّة لا يسكنها غير التجار". وهو أيضاً من سياستهم لإضفاء الهيبة على معاملاتهم وتجاراتهم حين يسكنون محلة أثرياء الدولة والمتحكمين في اقتصادها وتجارتها، علاوة على ما تقدم من الأنفة والتكبر وازدراء جوار العامة فـ"إنما المرء بالجار"، جار الأغنياء غني، وجار الأقوياء قوي.

"وداري في السِطَة.." اختيار موقع البيت مهم جداً، فكلما كان موقع العقار مميزاً كان سعره أغلى، وزاد التباهي وانتصر لحظ نفسه أولاً، ثم لتجارته ثانياً، فلما تكون الدار في الوسط تؤدي كل الطرق إليها، فيشتهر صاحب الدار عند العامة والخاصة، واختيار الوسط تحديداً معروف في الجاهلية والإسلام ولكن بقصد ودلالة أخرى أشرف وأجل، وهي إكرام الأضياف حينما تكون السبل جميعها تفضي إلى فنائك.

ففي الجاهلية كما قال زهير بن أبي سلمى يمدح سنان بن أبي حارثة المري[8]:

يسطُ البيوتَ لكي يكون مظنةً   من حيثُ توضعُ جفنةُ المسترفدِ

وفي القرن الثاني الهجري في العصر العباسي يمدح مسلم بن الوليد القائد الفذ يزيد بن مزيد الشيباني فيقول[9]:

---

[7] وهذا معروف في مجتمع التجار إلى اليوم، كما حدَّث أحدهم عن مقايضته لعمارة بساعة من ألماس نادرة من أجل المفاخرة والحديث بها عند الاجتماع بأمثاله من التجار.

[8] ثعلب(ت:292هـ)، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صـ275، ط4، دار الكتب والوثائق القومية-القاهرة،2015م.

لا يرحلُ الناسُ إلا نحوَ حُجرتهِ كالبيتِ يُضحى إليه ملتقى السُبُلِ

وهنا تطور خطير في دلالة اختيارالسطة من البيوت في القبيلة أو المحلة، من دلالة إكرام وإحسان للضيوف إلى مفاخرة ومباهاة ومآرب أخرى تُعنى بالمصلحة الشخصية للفرد. ولعلي أن أضيف هذا الأمر -زيادة واستئناساً- إلى القرائن السابقة التي تدل على عجمة هذا التاجر وتحوله عن طبائع العرب وعاداتهم.

"كم تقدر... قلت: الكثير" وهذه من الأساليب المتبعة حتى يومنا هذا في باب المبالغة في الثمن، وإلباس الشيء المسؤول عنه هالة قشيبة فوق الوصف والتصور، ويؤكد تعجبه من هذا الغلط حين "تنفس الصعداء" لتكون هذه السكتة كالتقريع للمخاطب جراء ما وقع به من الغلط، فيلوم نفسه ويُغلي من ثمن ذلك الشيء ويعظمه.

5- الفقرة الخامسة صـ131: (وانتهينا إلى باب داره... لا استعنت إلا بمثله)

"أرأيت بالله مثلها؟" همٌّ عظيم عند طبقة التجار هذه، هو الحرص على الظفر بالنوادر والتحف التي لم تُر من قبل، وامتلاك ما لا يملكه الآخر من أجل إشباع الذات الناقصة، والظهور بمظهر الكمال المزيف الذي يُبهر العامة كثيراً، ويخلب عقولهم.

"خفيف اليد في العمل" وهذه أيضاً من الأساليب المستخدمة حتى يومنا في الدلالة على حسن صنعة الصانع، وإتقانه عمله، كما نقول عن طبيب الأسنان الحاذق وغيره من أصحاب الحرف اليدوية (يده خفيفة).

"بحياتي.." يكثر الحلف بحياته كما سيأتي أيضاً، ففيها إشارة إلى رقة الدين، والجهل بالأحكام الشرعية عند التاجر كنموذج ممثل عن تلك الطبقة، ففي الحديث عن سعد بن عُبَيدة قال: كنت عند ابن عمر، فقمتُ وتركت رجلاً عنده من كِنْدة، فأتيت سعيد بن المسيب، قال: فجاءَ الكندي فزعاً، فقال: جاءَ ابنَ عمر رجلٌ فقال: أحلفُ بالكعبة؟، فقال: لا, ولكن احلف برب الكعبة، فإن عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاتحلفْ بأبيك، فإنه من حلف بغيرالله فقد أشرك"[10].

6- الفقرة السادسة صـ132: (وهذه الحلقة تراها... بين النرد والقمر)

"بالله دوّرها ثم انقرها وابصرها" من الأساليب المتبعة في التسويق للبضاعة أن يُقلّب التاجر البضاعة ويضرب عليها ضربات كأنه يتفحصها ليُعلم مَن أمامه جودتها وإتقان صنعها.

"عمَّرك الله يا دار"أيضاً، الدعاء بالبركة والنماء للحاجة المراد تسويقها للمخاطب من أفضل الأساليب الحجاجية في بيان حسن تلك الحاجة أو الغرض المعروض.

"كم من حيلة احتلتها" الحيلة والسرقة وسوء الطوية في المعاملات التجارية كل ذلك مسموح في عرف التجار إلا من رحم ربي، بل يعدّون ذلك من الشطارة والفطنة والحذق، وهنا يتجلى النقد الاقتصادي والسياسي لتلك الطبقة من التجار الأعاجم وغيرهم من كبارالدولة والمسؤولين الذين لا يحركون ساكناً حيال الفساد الطاغي والمدمر للطبقة الكادحة والفقيرة.

"وسلني متى... كان لي جار" من ثقل تلك الشخصية الثرثارة أنه يسأل ويجيب، ويستأثر بالحديث دون الضيف، بل يدخل القصة في بطن القصة، ويستنبط الحديث من ظهر الحديث! وهذا غاية في سوء أدب المجلس، وأدب المجلس من أساسيات التربية العربية منذ الطفولة خاصة في تلك العصور، والنصوص والأخبار الدالة على ذلك كثيرة.

7- الفقرة السابعة صـ133: (وأشفقت أن يسوقه... واستمهلني فأنظرته)

"وأشفقت... فأنقطع عليها حسرات" طبع لئيم وخسة يُظهرها على هيئة إشفاق، فالحسد والاحتيال وإضمار الشر حتى بابن الجار المسكين الذي ما رقَّ له ولا نصحه ولا سعى في إصلاحه بدل التحايل عليه، فالعربي يُعظِّم حق الجار من قبل الإسلام ومن بعده، فهل يكون التاجر من أصل عربي صريح؟!

ونرى من خلال قصة التاجر مع ابن جاره طول النفس في الشر، والتخطيط المسبق للإيقاع به بكثرة استدراجه في المعاملات، فالقوي يأكل الضعيف، والقانون لا يحمي المغفلين.

8- الفقرة الثامنة صـ134-135: (والتمس غيرها... فقد حان وقت الظهيرة)

"حصلت لي بجد صاعد.." انتكاس الفطرة السليمة عند التاجر وأشكاله من تلك الفئة، فالخداع والحيلة حظ وحسن تدبير!

---

[9] ابن المعتز، عبدالله (ت:296هـ)، طبقات الشعراء، صـ236، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج،دارالمعارف-مصر.

[10] (صحيح) مسند الإمام أحمد (ت:241هـ)، ج5، صـ131، تحقيق: أحمد شاكر، ط1، دار الحديث-القاهرة، 1995م.

"فإذا امرأة.." يصطاد الضعفاء والمساكين ومن اضطرهم الزمن للبيع والتجارة وهم أغشم ما يكونون فيها، فيأكل أموالهم بالباطل، وهذا من رقة الدين، وسوء الطباع، ولؤم الأصل.
"وسيكون له نفع ظاهر...ودولتك" العلاقات عند طبقة التجار كلها قائمة على المصلحة، وقياس مدى الربح من وراء ذلك الشخص، فالناس كالصفقات بالنسبة للتجار ربح وخسارة، وهنا كشف عن المصلحة المرادة من دعوة التاجرلبديع الزمان رجل الفصاحة والبيان، وهي إشهار اسم هذا التاجر بين الناس وما عنده من تحف وطرائف، حتى يرغب الناس في بضاعته وتروج بينهم، كالدعاية التجارية.
"وقت المصادرات... من دور آل الفرات" وحدث هذا سنة 312هـ حين اعتقل الخليفة المقتدر بالله الوزير علي بن محمد بن الفراتوآله، وأمر بتسليمهم للوزير الجديد عبدالله الخاقاني فعذب بني الفرات، واصطفى أموالهم. فقيل: أخذ منهم ألفي ألف دينار.[11] من هذا الخبر نتبين الفساد الإداري العام للدولة سياسياً واقتصادياً، فالفرد البسيط يضيع في خضم صراعات الطبقة العليا في المجتمع، مما يدعو المصلحين للتحرك الجاد كل في ميدانه.

9- الفقرة التاسعة صـ136-138: (يا غلام الماء... فما أجود متاعها)
"تقدَّم يا غلام... وأقبل وأدبر" اختلفت معايير تقويم الغلمان والعبيد، فقد جاء عن الشاعر الأموي نصيب بن رباح أنَّهم قوَّموه فكانت المعايير كما رُوي في معجم الأدباء لياقوت: "قال رجل: هو عليّ بمائة دينار، فقال نصيب: قولوا على أني أبري القسيّ وأريش السهام وأحتجر الأوتار، فقال الرجل: هو عليّ بمائتي دينار، قال: قولوا على أني أرعى الإبل وأمريها وأقضقضها وأصدرها وأوردها وأرعاها وأرعيها، قال رجل: هو عليّ بخمسمائة دينار، قال نصيب: على أني شاعر عربي لا يوطئ ولا يقوي ولا يساند، قال رجل: هو عليّ بألف دينار.."[12]، أما هذا الغلام الرومي فبشكله الخارجي وجمال أسنانه إلى غير ذلك من جماليات المظهر.
"وهذا المنديل..."وهنا سقطة ثانية في باب انعدام الغيرة والخوض في الحديث عن ملابس زوجته (سراويل)، وهذا لا يكون قطعاً من عربي! ويأتي الدليل الأبرز على أعجمية التاجر وشعوبيته حين قال عن المنديل: "لم تذله عرب العامة بأيديها" في سياق حديثه عن اختصاصه لأبي الفتح الإسكندري -الظراف من الأضياف- بالتحف من الأعلاق، وتنزيه إخراج هذا المنديل للعامة، فما شأن العرب بالموضوع؟ لم اختصهم من بين العامة؟ هل أيدي عرب العامة أذل من أيدي غيرهم؟! ما اختار بديع الزمان هذه اللفظة إلا للإشارة إلى الحقد الدفين، والنفس الشعوبي الذي تحمله طبقة التجار الأعاجم للعرب عامة.

10- الفقرة العاشرة صـ139-141: (تأمل بالله هذا الخوان... وقدمت الأراذل على الأحرار)
"لم يكن الكنيف في الحساب" من الأساليب المستخدمة إلى يومنا هذا عند حدوث أذى من جهة غير متوقعة، ففي العامية المعاصرة نقول: (هذا الذي ما حسبنا حسابه، أو ما كان في الحسبان).
"فأقمت عامين..." عامان من الحبس والضر بسبب ذلك الدخيل الأعجمي الذي سيطر على مفاصل الدولة، وتحكم في اقتصادها والإفساد في سوقها، فما أن كان إلا ما قيل قديماً -وهو من قول البديع-: "جنت المضيرة على الأحرار -أي العرب- وقدَّمت الأراذل -أي العجم- على الأخيار" دلالة الختام واضحة في الثلب والطعن على أولئك الدخلاء من الأعاجم فأكلوا الأخضر واليابس، وصار نفوذهم فوق العرب.

---

[11] الذهبي، شمس الدين (ت:748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، ج7، صـ207، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي-بيروت، 2003م.
[12] الحموي، ياقوت (ت:626هـ)، معجم الأدباء، ج6، صـ2753، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي-بيروت، 1993م.

المصادر والمراجع
1- الثعالبي، أبو منصور (ت:429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية-بيروت، 1983م.

2- ثعلب(ت:292هـ)، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ط4، دار الكتب والوثائق القومية-القاهرة،2015م.

3- الحموي، ياقوت (ت:626هـ)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي-بيروت، 1993م.

4- خليل، محمد، (المقامة المضيرية: توظيف الأدبي في الاجتماعي والسياسي)، العدد24، مجلة مشارف الفلسطينية،1 إبريل 2004م.

5- الذهبي، شمس الدين (ت:748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي-بيروت، 2003م.

6- مسند الإمام أحمد (ت:241هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، ط1، دار الحديث-القاهرة، 1995م.

7- المبارك، مازن (1981م)، مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، ط2، دار الفكر-دمشق.

8- ابن المعتز، عبدالله (ت:296هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دارالمعارف-مصر.

9- نوفل، محمد محمود قاسم، (مقامات بديع الزمان الهمذاني وأثر البيئة فيها)، العدد: 234، مجلة البيان-الكويت،1 سبتمبر 1985م.

References

Tha'alabi, Abu Mansour (1983), (429 H.), orphan age in the beauties of the people of the era, the realization: Mufid Qamhieh, House of Scientific Books - Beirut.

Tha'lab (2015), (292 H.), Explanation Diwan Zuhair bin Abi Salma, i 4, House of Books and National Documents - Cairo.

Hamwi, Sapphire (1993), (626 H.), Dictionary of writers, investigation: Ihsan Abbas, I 1, the House of the Islamic West - Beirut.

Khalil, Mohammed (April 1, 2004), (host place: the employment of literary in social and political), No. 24, the journal of the Palestinian Musharraf.

Al-Dhahabi, Shams al-Din (2003), (748 H.), the history of Islam and the deaths of celebrities flags, investigation: Bashar Awad known, I 1, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut.

Musnad Imam Ahmad (1995), (241 H.), Investigation: Ahmed Shaker, I 1, Dar al-Hadith - Cairo.

Al-Mubarak, Mazen (1981), Al-Hamdhani society through its shrines, 2nd floor, Dar Al-Fikr-Damascus.

Ibn al-Mu'taz, Abdullah (296 H.), layers of poets, achieve: Abdul Sattar Ahmed Farraj, Daralmaref - Egypt.

Nofal, Mohammad Mahmoud Qasem, (shrines of Badi Al-Zaman Al-Hamdhani and the impact of the environment) (September 1, 1985), Issue: 234, Al-Bayan Magazine, Kuwait.